الموقف الإسرائيلى بين الصهيونية والشرعية..

د. سيد نوفل

حفلت هذه الأيام بالتحركات الدولية . . فالتقى وزيرا الخارجية الأمريكى والسوفيتى : إدموند ماسكى وأندريه جروميكو . . وسعد الحلفاء الغربيون بهذا اللقاء بعد القطيعة . . ومثلما فاجأهم الرئيس الأمريكى كارتر بعملية الإنقاذ الفاشلة للرهائن الأمريكيين بطهران ، فاجأهم الرئيس الأمريكى ديستان بلقائه مع الرئيس السوفيتى برجنيف . . وباتفاقهما على عقد مؤتمر قمة دولى فى العام القادم لبحث التوترات العالمية . . أو على اتصال الحوار عاما أو أكثر من زماننا الخافقة ساعاته وأيامه بالأحداث الجسام . . وعبر ماسكى عن الغضب الأمريكى لهذه الزيارة . . ولكنه أعطى فى تعبيره مفهوما سياسيا طريفا . . وهو أنه من الممكن فى علاقات الحلفاء الغربيين ، الجمع بين المتناقضين : اليأس والثقة ! ! وضعفت حركة المقاطعة للألعاب الأولمبية بموسكو . . وعاد التهنى بمحاسن الوفاق الدولى ، وتمخضت المعاهدة السوفييتية الأمريكية الثانية للحد من الأسلحة الاستراتيجية . . ونامت لتحل فى هدوء ، أزمة الدبلوماسيين الأمريكيين الأسرى الموزعين فى خمس عشرة مدينة إيرانية . .

وفى هذا المعرك استجابت دول السوق الأوروبية استجابة محدودة لفرض عقوبات اقتصادية على إيران . . وهى استجابة لم ترض الولايات المتحدة الأمريكية كل الرضا . . ولكنها استحقت مع ذلك حمد الرئيس الأمريكى كارتر . . فهى ظاهرة ضغط جماعى على حكومتى إيران والاتحاد السوفيتى . . وشئ خير من لاشئ . . وخاصة بعد أن قررت الدولتان العظميان العمل المباشر ، وأسقطتا من بينهما الوسائط والأسباب التى لم تثبت فاعليتها ! !

لكن التطور الدولى الذى تتضاءل بجانبه أو تدور حوله سائر التطورات ، هو إطلاق الصاروخ الصينى عابر القارات . . فقد بلغ هدفه المحدود بتسعة آلاف وستمائة كيلو متر ، وتجاوزه إلى أحد عشر ألفا ومائتين . . وبهت البحرية الأسترالية دقة التوجيه وروعة السفن الصينية . . وبهذا الصاروخ الصينى الأول أثبتت القيادة الصينية مقدرتها على أن تطول أرجاء الاتحاد السوفيتى والغرب الأمريكى . . كما حطت نحو نادى العملاقين . . وللصين رأيها الواضح الصريح فى أن الردع هو السبيل الوحيد لمقاومة الهيمنة السوفييتية ، وأن التحركات الأخيرة فى أزمة أفغانستان مصدرها المعاناة السوفييتية المتصاعدة من المقاومة الأفغانية . .

■ ودع عنك حديث المؤتمر الإسلامى المنقضى بالأمس فى إسلام أباد . . فهو حديث هامشى لاريب . . ولايمكن لمؤتمر لتسعة بلاده فى العالم وقواه المتصارعة ، وبحكمه رعب الأرهاب وطمع المال وتناقض المواقف ، لايمكن لمثل هذا المؤتمر أن يكون فعالا . . فإيران يشغلها التدهور الداخلى والغزو العراق . . وقد احتدم الصراع بين وزيرى خارجية إيران والعراق ، وكاد قطب زاده أن ينسحب لولا وساطة الرئيس الباكستانى ضياء الحق . . واحتج وزير ايران على العرب الذين يؤثرون قضيتى القدس وفلسطين على قضيتى إيران وأفغانستان . . ولم يرحم أوهام الأخ أبو عمار . . وهاجم وزير خارجية العراق حكومة الخمينى والغزو السوفيتى لأفغانستان . . كما هاجم الولايات المتحدة الأمريكية التى تتدخل عسكريا فى الخليج ، ولاتسلم الأمر فيه إلى الحكومة العراقية المثلى بالمشاكل الداخلية والمجاورة والبعيدة . . وعى وقد القذافى وجماعة الرافضين ، بصرف المؤتمر عن مواجهة الغزو السوفيتى إلى مواجهة المعارضين لهذا الغزو . ! ! . . وإذا كانت المملكة السعودية هى راعية التعاون الإسلامى وخزانته ، فقد كان دور وزيرها الشاب فى المؤتمر شاقا . . فالأمير سعود الفيصل يؤكد أن الإسلام دين السلام ، وأن العرب يسعون لحل قضية فلسطين بالوسائل السلمية . . وينتقد فى الوقت ذاته جهود السلام المتقدمة . . وهو يرضى المعسكر الإسلامى الأرهابى بالدعوة إلى عدم التدخل الأجنبى فى منطقة الخليج ، كأن هذا التدخل لم يتم بعد . . كما يرضى المعسكر الإسلامى الغربى بتقديم العون المالى لثوار أفغانستان ، والحملة على الغزو السوفيتى للبلد الإسلامى . . . ولعل الأمير قد أنقذ ما يمكن إنقاذه من المؤتمر . . فدار المجتمعون حيث هم فى فلك التأجيل والدراسة والأمم المتحدة ، وابتعدوا عن منطق العصر وواقعه وحقائقه . .

ودع عنك حديث عدم الانحياز والاحتلال السوفيتى لبلد غير منحاز . . فقد شيعت جنازة عدم الانحياز بهافانا ، ورثى الحركة فيدل كاسترو فى أوائل الخريف الماضى . . وذلك قبل أن تشيع جنازة مؤسسها الثالث والأخير : تيتو بلجراد فى أوائل هذا الشهر . . وقد تأكد موت الحركة بالسكتة عن غزو أفغانستان وتجاوزات إيران ، وعما صاحبها وترتب عليها من أحداث . .

ورغم الحقائق والتطورات الدولية المتجددة فى هذه الأيام . . ورغم أن القضايا الوطنية أصبحت جميعا قضايا دولية ، فإن الحكومة الإسرائيلية تبدو كأنها تعيش فى جزيرة منعزلة عن أحداث المنطقة وتطورات العالم ، ونائية عن محيط الدنيا المفعم بالنذر والمخاطر . . فهى تعيش بعقلية مملكة داود وابنه سليمان عليهما السلام منذ ثلاثة آلاف عام . . بل إنها تتجاوز هذه العقلية حين تريد أراضى الضفة الغربية وغزة أو مانسميه يهودا والسامرة . . وتحتل فى الوقت ذاته أراضى فلسطين الساحلية والداخلية الشاسعة ، التى لم تطأها أقدام داود ولاسليمان ولا أى من الوافدين العبرانيين على العرب الحمانيين والكنعانيين والفلسطينيين . . تم تعيش بعقلية التفكير الصهيونى فى القرن التاسع عشر : قرن الاستعمار العالمى . . وتأبى العيش بعقلية الشرعية الدولية فى عهدى عصبة الأمم والأمم المتحدة ، وتصفية الاستعمار والعنصرية ، وحقوق الإنسان والأمم والشعوب . . كما تأبى العيش فى بداية عهد السلام الذى ارتفعت قواعده فى الشرق الأوسط ، بالاتفاق المصرى الإسرائيلى ، ولابد ان يفرض نفسه على المنطقة كلها رغم تطرف الرجعيين والرافضين . .

ومنذ أيام قال الدكتور يوسف بورج وزير داخلية إسرائيل ورئيس وفدها فى مفاوضات الحكم الذاتى : « إن السلام مع مصر كلف إسرائيل ثمنا باهظا . . . . ولا أدرى ماهو ذلك الثمن ؟ ! هل هو التمهيد لاستقرار إسرائيل وخلاص شعبها من ويلات الحروب والاستعدادات للحروب وكوارثها ؟ ! أو هو حركة السلام الكاسحة لإسرائيل والمهددة لأسلوب المواطنة ؟ ! أو هو التأييد المتصاعد من قادة الصهيونية وزعماء اليهودية العالمية للقضية العربية ؟ ! أو هو التأييد لهذه القضية من الكبار الاثنين أو الثلاثة ومن الأمم المتحدة بسائر قواها الكبرى والوسطى والصغرى ؟ ! أو هو تهافت الدواعى للابتزاز باسم التهديد العربى للبقاء الاسرائيلى ؟ !

ضياء الحق : احتدم الصراع بين وزيرى خارجية إيران والعراق لولا تدخله .

إدموند ماسكى وزير الخارجية الأمريكى : عبر عن الغضب الأمريكى للتقارب بين فرنسا والاتحاد السوفيتى

ومهما يكن من أمر ذلك كله ، فإن السلام والتنمية أهم بكثير من هذه العوامل الموقوتة التى تؤدى بالانتهاء أيا كانت الأوضاع . . لكن الصدق يقتضى الدكتور بورج أن يصحح تصريحه ، ويقول : « إن حرب ١٩٧٣ كلفت إسرائيل ثمنا باهظا . . » وهو نحن استفاض السياسيون والكتاب والصحفيون الإسرائيليون فى تبيان فداحته . . ونسبوه إلى تقصير الإدارة الإسرائيلية : العسكرية والسياسية معا . فنتائج حرب أكتوبر ، يعطولها المصرية وبالتفوق المصرى فى استخدام الأدوات والتكنولوجيا العسكرية المعاصرة ، هى التى غيرت الاستراتيجية الإقليمية والعالمية فى النزاع العربى الاسرائيلى . . لكن الدكتور بورج وبعض قادة إسرائيل لايزالون خضعون للمنطق الصهيونى القديم . .

■ وفى مطلع هذا الشهر دعتنى هيئة وطنية مسئولة إلى الحديث عن الصهيونية وعواملها فى الماضى والحاضر . . وتساءل البعض قبل الحديث : وهل يطابق حديث الصهيونية البائدة مقتضى السلام الوليد ؟ ! لكنه اقتنع من بعده أن العلة الحقيقية التى تعانيها القيادة الإسرائيلية الحالية ، هى محاولة التوفيق المستحيل بين المتناقضين : مطالب السلام العادل فى نهاية القرن العشرين ، ونوازع الصهيونية الاستعمارية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى قيام اسرائيل فى نهاية الأربعينات لهذا القرن العشرين ! ! .

ومن بعد نكبة يونية (حزيران) لعام ١٩٦٧ ، وفشل محاولات السلام المتعاقبة المتنوعة ، ظهر فى الإنجليزية كتاب قيم للصديق الدكتور جون ديفيز : الخبير الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط ، وابرز المفوضين العامين السابقين لوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين . . وكان عنوانه : السلام المغارب أو المخادع أو المراوغ . . The Evasive Peace وتحدث الدكتور ديفيز عن غرور النصر العسكرى الإسرائيلى ومعطياته ، وخاصة فى حرب ١٩٦٧ . . وأكد أن الأيام فى جانب العرب . . كما أكد أن السلام لكى يتحقق فى الشرق الأوسط ، فلابد أن يتخلى المضرمون من قادة إسرائيل عن المفاهيم القديمة . . وفى مقدمتها الارتباط الإسرائيلى بالجماعات والقوى الخارجة عن المنطقة . . ويترتب على هذا أن تعترف إسرائيل بأنها دولة من دول الشرق الأوسط وليست غريبة عنه . . وأن تعيش بشعبها الذى يسكنها الآن . مثلما تعيش سائر دول المنطقة بشعوبها التى تسكن اراضيها . .

وقد نوهت بهذا الكتاب فى حينه ، ولكنه احتفى على الر

اندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتى : لدى بعد قطيعة . . مع ماسكى

ظهوره . .

وكان من المستحيل أن تجيب الحكومة الإسرائيلية لمثل هذا الداعى قبل نصر أكتوبر ومبادرات السلام . .

وساد جو السلام عقب حرب اكتوبر ، وفتح قناة السويس بعد السيطرة المصرية على شرق القناة فى سيناء ، وقضى الاشتباكين الأول والثانى . . وأسقط النصر المصرى العرقى حزب العمل الحاكم منذ نشأة إسرائيل . . وجاء الليكود أو تجمع المتدينين والمتطرفين . . وحكم السيد مناحم بيجين فى منتصف عام ١٩٧٧ . . وأخذت تنشط من جديد الدعايات القديمة غير المستندة ، مثل القدس الموحدة عاصمة إسرائيل التاريخية ، والحق الإسرائيلى الإلهى فى الضفة الغربية وغزة ، والخلط بين التحريف الدينى والإحالة السياسية لحديث الاستيطان والأمن . .

□ □ □

وكان عجيبا حقا هذا الإحياء لمعان قديمة لم تلق التأييد ولاالتفهم فى وقت من الأوقات . . فالاستيطان والأمن سبيلا لإقامة وطن لليهود فى فلسطين ، قد انتهى أمرهما بإقامة دولة إسرائيل فى منتصف مايو عام ١٩٤٨ . . ولم يعد للمستوطنات مبرر بعد تولى جيش الدفاع الإسرائيلى مهمة الأمن ، وخروجها من أيدى المستوطنين الذين يمارسون العمل وحماية منازلهم فى وقت واحد . .

وحين خصمت إسرائيل الأراضى غير المسكونة والمنزوعة السلاح طبقا لاتفاقات الهدنة عام ١٩٤٩ ، حيثما أقامت مستوطنات مدنية ، وتولى جيشها مهمة الدفاع عنها . . وبعد حرب ١٩٦٧ والأراضى الفلسطينية والعربية التى استولت عليها إسرائيل ، ظهرت من جديد قضية الاستيطان والأمن فى الأراضى المحتلة . . وقد تولى علاجها موشى دايان وزير الدفاع حينذاك ويجال آلون وزير الخارجية . . وكانت خطتهما هى اقامة مراكز دفاعية ذات استيطان محدود لايعدو عشرة آلاف مستوطن ، والاحتفاظ للأرض المحتلة بوضعها الموقوت .

ولكن أفكار الاستيطان والأمن والقدس الموحدة ، أخذت تحيى وتنشط منذ عام ١٩٧٧ . . وأخذت تنشط ملاهى الأوصياء أو جماعة جوش امونيم الذين لايعترف الإسرائيليون أنفسهم بوصايتهم ، ويعجب العالم من تعامل الحكومة الإسرائيلية معهم . . ولعل دعوة دايان إلى الجلاء العسكرى والإدارى الإسرائيلى عن الأراضى العربية المحتلة تمهيدا للسلام الشامل تلقى بعض الضوء على الموقف الإسرائيلى العام .

■ والحق أننا فى مقام السعى لإقامة السلام العادل الشامل

سعود الفيصل : أكد أن الاسلام دين السلام وأن العرب يسعون لحل قضية فلسطين بالوسائل السلمية

للشرق الأوسط ، يجب أن نتحرر من أفكار الماضى وتحريفاته . . والشرعية الدولية التى تستند إليها إسرائيل ، ويعتز بها قادتها ، تتمثل فى أمرين أساسيين . .

الأول تصريح وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور عام ١٩١٧ . وتضمنه عهد عصبة الأمم إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين عام ١٩٢٢ . . وهو صريح فى احترام حقوق العرب الفلسطينيين إلى جانب المساعدة فى إقامة وطن لليهود بفلسطين . . والآخر هو قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية ، مع تدويل منطقة القدس الكبرى . . وعينت فيه حدود الدولتين وأراضيهما والمنطقة الدولية . . أما اتفاقات كامب ديفيد وقرارات مجلس الأمن التى اعتمدت عليها ، فهى غنية عن المزيد من الايضاح . . .

فهى تؤكد تحرير الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، ولاتعترف لإسرائيل بأى حق أو عمل فيها . . ولاتبيح أى تغيير فى الأوضاع القائمة حتى يوم ٤ / ٦ / ١٩٦٧ . واتفاقات كامب ديفيد تنص على الحكم الذاتى الفلسطينى والاستقلال الذاتى الفلسطينى التام ، وعلى حق الفلسطينيين فى تقرير مستقبلهم . . وعبارة الحكم الادارى الذاتى التى ترددها إسرائيل ، عبارة مفتعلة لم ترد قط فى اتفاقات كامب ديفيد . . أما المجلس الادارى الذى يتولى سلطات الحكم أو الاستقلال الذاتى ، فهو شىء آخر تماما . . والإدارة هنا تعنى الحكومة بالمعنى الأمريكى ، وبالمعنى الدولى المستقر منذ تقرير الجمر شولد فى الموضوع أثناء ولايته الأمانة العامة للأمم المتحدة . . والمفهوم الإسرائيلى يتناقض مع المفهوم العالمى الاجماعى . . وليس من سبيل للتهرب أو التراجع فى اتفاقات كامب ديفيد ، كما قال إدموند ماسكى . .

■ ولست أريد الاستفاضة فى هذا المجال . . فالسلام قد استقرت قواعده فى الشرق الأوسط . . وحقوق الشعب الفلسطينى الوطنية ثابتة مستقرة . . والاعتراف الدولى قد اكتمل لها . . وإدانات الأمم المتحدة الإجماعية متصلة لممارسات اسرائيل التعسفية فى الأراضى العربية المحتلة . . كما ان القوة الفلسطينية العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية ، قد فرضت نفسها ، ومن الخير لإسرائيل ولقضية السلام ، التحرر من أوزار الماضى ، والعيش فى الحاضر بواقعه وحقائقه وتطوراته . .

□